أدب الرحلة بين التباس المفهوم واستعصاء التجنيس

د. ميداني بن عمر/ جامعة حمه لخضر-الوادي

لا ريب أن«أدب الرحلة» «Récit de voyage» مفهومٌ عصيٌّ على الامتثال إلى تحديد قارٍّ يُسلِّم له كلُّ اقترابٍ قرائي لمدلوله . ذلك أن هذا الفن الأدبي ظلَّ مستوحَشَ التَّصنيف داخل تراتبيات الأجناس الأدبية، بوصفه جنسا شَرُودًا genre fuyant لا يكفُّ عن الفلتان من أي ضبط لمدارات تخييله عبر شعرية محددة ضمن مضمار جمالي محدد تتساقب من خلاله منازل التشكيل لتساقب انتظارات التأويل. وهو ما حدا بالفرنسي رولان هيونان R. Le Huenen الذي يُعدُّ من أكبر النقاد الذين تصدوا لهذا الفن الملتبس إلى تعريفه في مقدمة إحدى كتبه بوصفه ينتمي إلى تلك الأجناس الهجينة التي ليس في إمكان أية شعرية أن تخلص بتحديد حاسم لها (1).

وإذا كان التحديد الأجناسي يستقر من خلال ما تستنبطه القراءة التاريخية لتراكمات نصية ضمن أنساق محددة في مجال فني معين فإن «أدب الرحلة» باعتبار موقعه العبر –نوعي العائم على تخوم أكثر من جنس أدبي يظل معضلة جنسانية مستحكمة، ذلك أننا نقرأ أدب رحلةٍ في قصيدة شعرية مطولة كرحلة الورجلاني مثلا، ونقرأ أدب رحلة تقترب من فن السيرة الذاتية، وأخرى تقترب من المقال الصِّحافي كالرسائل الحميمية لإزابيل إبرهارت، وهناك أنماط منها تقترب من الشعر التعليمي، وهو ما يجعل من تحديدها الجنساني الأدبي متحركا متغيرا بتغير الوظيفة الذي يؤدي بالضرورة إلى تغير في الشكل الإبداعي الذي يظهر به أدب الرحلة في أكثر من تجلٍّ.

فكيف نستطيع تجسير الهوة المتحركة بينه وبين بقية الأجناس؟ وكيف تتجلى أدبيته تبعا لكل ما ذكرنا ؟.

ينفرد النص الرحلي ينفرد عن سائر النصوص بهذه الخاصية/ خاصة الرحلة ذاتها التي تصنع فرادته في كونه نصا للارتحال في المكان وفي الزمان، ونصا للارتحال الدائم بين الأنساق والأجناس. إنه نصُّ الطريق وليس نصَّ الوصول... نص الدرب إلى (إثاكا) وليس نص (إثاكا) الوطن الذي حتى لو عدنا إليه فإن أرضهُ ستُبدَّلُ غير الأرض، وسماؤه ستصير غير السماء... لأن المُرتحِل ارتحل أيضا بثقافته ونصِّه وأنساقه .... وصار المنفى مصيرَ نصه. وهو مصيرٌ يبدو أنه سيظل عالقا به كتعالق القوقعة بجسد حلزونه ليظل ، تبعا لذلك، عائما فوق برازخ ملتفة ومتحركة من التجارب الجمالية والفنية، مراوحا بثه التوصيلي بين التقرير العلمي والإخباري، والإيحاء الفني والتخييلي بل والعجائبي.

وحين نحاول القبض على أثرٍ تاريخي يُرجعنا إلى سِرَّانية هذا الانفتاح المُشرَع على أكثر من احتمال جمالي يحتمله هذا النص فإن في السردية العربية الإطار: (رحلة السيرافي في القرن 9م

أي قبل ظهور الرحلة الغربية في الأدب بقرن كامل) ما يميط اللثام عن صيرورة هذا القلق الجنساني بدءا من تخلقه الجنيالوجي الأول في أوصال أدبنا العربي، حيث تتعدد هوية الكاتب، وتتعدد بالنتيجة وتتفاوت أبنية النص وموضوعاته ومستويات لغته، فـ«رحلة السيرافي» هي رحلة شخصية عربية تسمى (سليمان التاجر) إلى الصين والهند والتي تلقاها مؤرخ جغرافي يدعى أبو زيد السيرافي، ونقلها عنه ومحّص روايتها وأضاف إليها معلومات كثيرة حول الصين نقلها عن ابن وهب القرشي الذي سافر إلى الصين في سنة 257 هـ ، كما أوصل إلينا المحققون ما دوّنه السيرافي تحت اسم (سلسلة التواريخ) تارة، و(أخبار الصين) تارة أخرى، و(رحلة السيرافي) مرة ثالثة، إلا أننا نجد تحت تلك العناوين: رحلة سليمان التاجر أولا، وفي ذيله الملحق الذي أضافه السيرافي، ونلاحظ التباين بين القسمين، من حيث الأسلوب والموضوعات المتناولة" (2) كما يرى عبد الله إبراهيم .

فسليمان التاجر لم يكن أديبا أو كاتبا أو مؤرخا أو رحالة عالما بامتدادات المسالك ومآلات الممالك في التاريخ، فهو هنا مجرد مُشاهد واصف لما وقعت عليه عينه في رحلاته من معاينات تُعدُّ قيمةً علمية هامة كساها فيما بعد أبو زيد السيرافي حُلة أدبية حين أعاد تدوينها وبالتالي تأهيلها لتكون المدونةَ الإطار للنص الرحلي العربي، ولتضعنا دائما أمام هذا الملمح الموشوري المتعدد الأطياف للنص الرحلي منذ بداياته الأولى وخاصة حين ينفصم الباثُّ لهذا النص إلى هويتين متداخلتين/ متخارجتين، هوية الشاهد والملاحظ، و هوية الأديب الواصف الحاكي ليظل النص يتأرجح بين وظيفتين تعبيرية وتوصيلية تنزاحان به إلى انفتاح تعالي مستمر مع مكونات وأشكال أدبية وغير أدبية يمتصها أو تظل عائمة فوق سطحة دالّة على تمايزه وتعدد منافذه .

هكذا سيستدعي أدب الرحلة :السرد، والمحكي الشعبي، والملاحم، والسيرة الذاتية، والتراجم، والتاريخ، وعلم الجغرافيا، والسجلات الاجتماعية، والخرائط، والطوبوغرافيا، والشعر استشهادا أو تغنيا، واليوميات، والأنثروبولوجيا، والإثنولوجيا، والمقال الصحافي وغيره من العلوم والمعارف والتقنيات النصية التي لا يتوانى النص الرحلي على استثمارها واستيعابها. لذا ظل النص الرحلي إلى اليوم عصيا على التحديد، مارقا عن أي اتفاق حول مفهومه من قبل دارسيه، ليجزم معنا الباحث شعيب حليفي بذات الرأي حين يعزو هذا إلى : وجود نصوص رحلية كثيرة ثرية ومتنوعة، وانفتاح النص الرحلي على عناصر أخرى متحركة تحضر وتختفي بدرجات متفاوتة في النصوص (3) .

ونحن هنا لا نغفل حقيقة أن التنافذ النوعي يكاد يكون سمة مشتركة لكل جنس أدبي، وأن نقاء الخصائص والتفرد التام لجنس أدبي معين بمميزاته يوشك أن يكون أسطورة نفترض وجودها فحسب، إذ أن تمثلها يستحيل في واقع الأدب عند الدارسين كما يؤكد (بارتون جونسون) أن معظم الكيانات الأدبية الخالصة بخلاف الكيانات الصوتية، لا تحصر نفسها في تحديد صارم. إن الأبنية الأدبية رغم أنها حقيقية ومفيدة دون شك، إلا أنها هجينة. وأي مثال نقي لنوع أدبي هو طير نادر في الحقيقة (4). لكننا هنا أمام نص يتخطى جنسه ليخترق حدود نوعه إلى مدارات خارج سيطرة المعيار الأدبي، ليظل مخترِقا لأفق انتظار قارئه طالما أنه نزّاعٌ إلى التفاعل المفتوح مع أية خبرة إنسانية يروم تأثيث أنساقه وإبدالاتها بها. نص يخترق (ميثاق) القراءة التي يتطلبها استقرار أي جنس كتابي يحظى بثبات نسبي لمعاييره التي يتوقعها قراء مشتركون تُصادق انتظاراتهم على هويته التي لا تُخيّب بعضا منها ... كما يُقدّم المُنظِّرُ الأكبر للسيرة الذاتية الغربية التي تقترب من

أدب الرحلات (فيليب لوجين Philipe Le jeune) الميثاق القرائي بوصفه ليس فقط طريقةً في القراءة بقدر ما هو نمط من الكتابة، وإن تاريخ السيرة الذاتية ليس في النهاية سوى تاريخ طرائق القراءة التي يتعاقد عليها المؤلفون والقراء عبر التاريخ (5).

وتُطرح هنا جدلية الذات والموضوع في رصد مدى اقتراب وابتعاد (مَكُّوك) النص الرحلي عن مدار (الأدبية) واستعصاء رُسُوّه عند معايير دنيا تجعله قابلا للتجنيس Engendrable إذ كلما أوغلت المُرسَلَة الجمالية في تذويت الموضوعات وجعلها تنبثق من ذات تنعكس عبرها صور الموجودات وتطبعها بتمثيلاتها فإننا نقترب من مدار (الأدبية)، وكلما تجرد الخطاب الواصف من حساسيتها وحواسها وما يستقطبه مجالها الانطباعي كان النص وعاءً لغويا تطغى الوظيفة التسجيلية التقريرية المعلقة والشارحة والواصفة والعاكسة لصور المواقع والبلدان والحوادث عليه.

لذلك يتنكر بعض الراسخين في النقد لأدبية «أدب الرحلة» من المنظور الجاكوبسوني الشكلاني حين يحيد البعد التوصيلي المحض عن أي وظيفة شعرية ، نلمس ذلك حين يقترب أدب الرحلة من الرحلة الجغرافية مثلا وهو التباس خاض فيه (نقولا زيادة) في كتابه (الجغرافيا والرحلات عند العرب) الذي حاول فيه التمييز بين الأدبي والعلمي في الرحلة، بين التقريري والإيحائي فيها ... ومع ذلك يبقى هذا الفن مثار جدل بين مصنفيه إذ يعزوه البعض إلى ما يُصطلح عليه بـ «الأدب الموازي paralittérature » على غرار الرواية البوليسية، وأدب الخيال العلمي، وأدب السير وغيرها . هكذا تتماهى كينونة أدب الرحلة مع صيرورته بدءا من التسمية، فهو أدب رحلة وارتحال في الفضاء وفي الأجناس وفي الأنساق، ولعلنا نقترب هنا من بعض ما أومأ له (كلود ليفي ستروس Claude Lévi-Strauss) حين يرى في كتابه (أحزان مدارية Tristes Tropiques) أن الرحلة هي عبارة عن تخطٍّ للفضاء، وللزمان، وفي الوقت نفسه تخطٍّ للثقافة... إنها أبعد من كونها مجرد انتقال جغرافي (6). وهو تعريف يجعل من جنس أدب الرحلة طوافا حول أكثر من حقل أدبي أو معرفي أو ثقافي قد يتخطى حتى حدود الثقافة الواحدة من جهة. ومن جهة أخرى فالرحلة صارت عبورا واختراقا معرفيا ثقافيا عند قرائها المعاصرين حتى لو كانت حديثا عن رحلة داخل غرفة (7) كما يرى (جان مارك مورا Jean-Marc Moura) لأن هذا النص ظل خالدا إلى ارتحال جوَّابٍ يتعالق من خلاله مع أكثر من نسق يجعل من تحديده الجنساني في بحث دائم عن قرار لا يمتثل. وهو يخترق حجب الأنساق والأمكنة والأزمنة كـ: «رسالة الغفران» لأبي العلاء المعري(ت 449 هـ)، و«رسالة التوابع والزوابع» لابن شهيد(ت 426 هـ)، و«التوهم» للحارث المحاسبي(ت 243 هـ).

ونحن إذ نطرح مفهوم التنافذ النسقي، وحركة الأنساق الموّارة في أدب الرحلة فإننا لا يمكننا أن نغفل بالطبع أن هذا الأدب هو ثمرة خبرة إنسانية عبر إقليمية، أي أنها مخترقة بأكثر من نسق ثقافي بين إقليمين فما أكثر، وهو ما يرجح موقعه الطرفي المريب بين الحقول الأدبية والمعرفية حتى أن سعيد علوش يعرف أدب الرحلات في معجمه بأنه أدب يدخل في درس (الصورولوجية) (*) أي دراسة صورة شعب عند شعب آخر ... ويتتبع (أدب الرحلات) عادات وتقاليد وتأثيرات

إقليمية (8) . فهو يرصد أشكال التأثير والتأثر في عادات وطبائع وثقافات الشعوب، كما أنه في الوقت نفسه يتأثر ويتفاعل بنيويا ونسقيا تبعا لكل ذلك .

وإذا كان التحديد الأجناسي يستقر من خلال ما تستنبطه القراءة التاريخية لتراكمات نصية ضمن أنساق محددة في مجال فني معين فإن «أدب الرحلة» باعتبار موقعه العبر –نوعي العائم على تخوم أكثر من جنس أدبي يظل معضلة جنسانية مستحكمة، ذلك أننا نقرأ أدب رحلةٍ في قصيدة شعرية مطولة كرحلة الورجلاني (1100 م- 1170 م) رائد أدب الرحلة الجزائرية في (القصيدة الحجازية) المطوّلة مثلا، والتي جاء منها: «

لقد أنذر الرائين فضلا بهوله على الراكب الملا ح بله المخاطر

إذا ضربته موجة زعزعتب بنا فصكت بجنبيها كوقع السواطر

فحـطم منها جلبة فتحطمت فكبر أهلوها بكل التكابـــــر

فأنقذنا منها المليك بفضله وألهمنا المعروف خير الأوامـر»(9)

حيث يتداخل السرد بالشعر في هذه المنظومة خدمة لهذا الغرض الفريد الذي ينشد حكي الوقائع مبتعدا عن الانزياحات الشعرية الكبرى التي تتقصد الإغراب والإدهاش، وهذا المقطع النموذجي من المطولة يقترب من ذلك الشاهد الشعري الذي ينسب لعقبة بن كعب بن زهير الذي يستدل به البلاغيون على ما جاد لفظه وهان معناه، أي سهل لتداوله لأنه يقف في الطرف القصي بين النثر العادي والشعر : «

ولما قضينا من منى كل حاجة... ومسّح بالأركان من هو ماسح

وشدت على هدب المهاري رحالنا...ولا ينظر الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا... وسالت بأعناق المطيّ الأباطح »(10).

وهو ما نجد نموذجا له أيضا عند البشير الإبراهيمي في (رواية الثلاثة) حين تقتحم الرحلة منطقة السيرة الذاتية، والرواية والمسرحية وأدب الاعترافات بأسلوب (الشعر التعليمي) وأراجيزه المعروفة . والثلاثة هم الشيخ السعيد بن حافظ مدير مدرسة التربية والتعليم الحرة بقسنطينة، والأستاذان: عبد الحفيظ الجنّان، ومحمد بن العابد(الجلاّلي)، المعلمان بها، وشيخهم هو مؤلف الرواية. وهو نص تسجيلي يؤرخ لمرحلة هامة من تاريخ التدريس في جزائر النضال الثقافي ضد الاحتلال الثقافي الفرنسي وبأسلوب ساخر، وبلغة تقريرية يستملحها نسق هذا الأدب، ومما جاء فيها : «

لى الفَتَى عَبْدِ الحَفيظِ الجنَّانْ ..... أَدامَهُ المَولى الحَفيظُ المِنَّانْ

مُؤدِّبِ الصِّبيانِ في مَدْرستي..... و حَامِلِ الأَثْقالِ من غطرسَتي

مَسْكَنُهُ في زَنْقةٍ لا تُعرفُ..... إذْ طُمِسَتْ من جَانِبيْها الأَحْرُفُ

وَوَسْمُهُ إمساكُ قَرنِ الثَّورِ ..... في يدهِ كَنَافخٍ في الصُّورِ

و هذهِ عَلامَةٌ مُنفَصلِه..... تتْبَعُها عَلامَةٌ مُتَّصله

****

ثُمَّ إلى الشَّيخِ الأَدِيبِ الكَاتِبْ..... المُرتَقِي لأسْفَلِ المَرَاتِبْ

المُرتَضى مُحمدِ بن العَابِدْ..... لازال في جُهدِ الشَّقا يُكابِدْ

مُفَسِّرِ القرآنِ للأَطفالِ..... من سُورة الرَّعدِ إلى الأَنفَالِ

مُقَرِّرِ القواعدِ المُقرَّره..... و حافظِ المَسائلِ المُكرَّره

مَقَرَّهُ أنْ ليسَ ذا مَقَرّ..... يَقيهِ من حَرّ لَظَى و القرّ

وَوسْمُهُ الإقْعاءُ في مَنَاخِره..... و فَتحَةٌ ظَاهِرةٌ في آخِره

بَعدَ سَلاَمٍ مُحْكَمٍ مَرْبُوطِ .....و قَهوةٍ بِالتِّينِ و البلُّوط

و سُكَّرٍ من الرِّمالِ مُجْتَلبْ ..... و لَبَنٍ منِ الجِمَالِ مُحْتَلبْ

و سُفْرَةٍ قد جَمَعتْ حُبُوبَا..... الفُولَ و الخُرْطانَ و الكُبُوبَا

و قِدْرَةٍ قد ضُمِّنتْ أخلاَطا..... اللِّفتَ و التَّرْفَاس و البَطاطا

في غُرْفَةٍ تُضَاءُ بِالنُّجُومِ..... ... أو شُرْفَةٍ تُقْذَفُ بِالرُّجُومِ

أَرْجُوكُما أنْ تَحضُرا سَريعا..... لِتدفَعا خَطْبًا دَهَى مُرِيعا

في السَّاعةِ التي أكونُ فيها..... مُرَفَّهًا في عِيشتي تَرفِيها

في يومِ تِسْعٍ من شُباطَ المَاضي..... لأنَّني أكونُ فيه (فَاضي) (11)

إن المسافة التي تفصل الشعر عن السرد، ولنقل هنا؛ المسافة بين الخطاب الأدبي والخطاب التداولي العادي تتعلق حتما بعلاقتهما ببعد ثالث هي (الذات)، إذ أن الذات في الأدب أكثر حضورا وحلولا في النص، بل يكاد النص لا ينبثق إلا من بؤرتها المركزية . فحين ألحّ الأدباء على تذويت الأدب ، ووجدوا أنه التعبير المطلق عن ذاتية الأديب ووجدانه، وأن هذه الذات تعمل بأقصى طاقتها في الساحة النصية مرتكزة إلى (الأنا) التي تمثل الجسر الموصِّل إلى فاعلية الفعل الأدبي (12). وهو ما يجعل من أدب الرحلة يتجلى في أدبنا الجزائري دون سواه من فنون الأدب في الصحف السيارة وبخاصة في الفترة الاستعمارية وما بعدها بقليل حين يقترب ويقترن بالمقال الصحافي (الريبورتاجي) الذي يعرف القارئ الجزائري وقتها بمناطق مجهولة من بلاده الشاسعة حيث لا وسيلة إعلامية أو اتصالية حينها تقوم بديلا حيا عن الصحيفة.

وحين نستعرض نموذجين من أدب الرحلة الجزائري سنجد هذا التحييد الواضح للذات المقرّرة الشاهدة وهي تتعالى عن الحدث وتنزاح عنه :« قصر البخاري عبارة عن مدينة عظيمة وهي قسمان قسم يقطنه المسلمون خاصة ويدعى لدى القصريين بالقصر وقسم يقطنه الأوربيون ولفيف

من المسلمين ويسمى عندهم (بالفلاج) وبالقصر جامع الجمعة الذي حاز إعجاب السواح لنضارته وحسن مناظره والزاوية الموسمية، وبالفلاج الحمامات الفخمة والبناءات الأوروبية وإدارة البريد»(13). وكذلك في هذا النموذج: «...بمدينة معسكر مساجد تاريخية وأشهرها الجامع الأعظم الذي يقع وسط المدينة ومن أشهر مساجدها التاريخية مسجد العين البيضاء ويسمونه جامع البيعة..... »(14) وهو ملمح أسلوبي يكاد يكون مُطَّردا في سائر فقرات هذين الخطابين الصحافيين اللذين يدرجان في خانة أدب الرحلة الجزائري، أو بالأحرى (النص الرحلي) حتى نتسع بالدلالة إلى ما لا تستوعبه دائرة الأدب، لأننا في أحايين أخرى قد نصادف نصوصا رحلية تستدعي الشعري والتعبيري في خطابها حين تنزاح وظيفة النص جهة الذاتي مبتعدة إلى الإيحاء عن التقرير في تناول الموضوع كالذي نقرأه في هذا المثال :« "السلام عليك يا قسنطينة الغراء، ذات الجمال الرائع، والمناظر العجيبة. السلام عليك يا بهجة المدن وعروسة الكون. السلام عليك يا قسنطينة العتيقة ذات الهواء الطيب الطلق الحفاف، والماء العذب»(15) . وكنموذج قريب منه لدى أحمد توفيق المدني نقرأ منه : «كنت أنتقل من رياض غناء كأنها اقتطعت من جنات الخلد، أخلدت إلى السكينة بين أفنانها وأغصانها قصور يدل ظاهرها على أنها تراث الأجداد والأمجاد، إلى مقاصد رصعت فوق رمال صفراء فاقع لونها تسر الناظرين حول ساحل بحر فيروزي متعدد الألوان الأمواج»(16).

ففي الخطاب الأول تشخيص وتذويت للموضوعات الخارجية عبر تأهيل الوظيفة الإيعازية Emphatique الإنشائية جنوحا إلى أسلبة شعرية تستجدي النداء لمدينة قسنطينة التي يُقرِنُها السلام، وفي الخطاب الثاني أسلوب مرصع بالاستعارات والتشبيهات والتناص القرآني ليستحيل الخطاب المرتد إلى ذاته وظيفيا إلى تحفة فنية أدبية لا تسطع فيها الموجودات بألوانها الطبيعية بقدر ما تشع بألوان ذاتِ واصفِها العاشق. من هنا نستطيع أن نفهم مختلف تمظهرات النص الرحلي ومدى انفتاحه المتعدد على أكثر من جنس موازٍ له . وبخاصة (السيرة الذاتية) . لأن هذا الفن لم يظهر تحت مسمى (أدب الرحلات)، وإنما كان يظهر أحيانا تحت خانة «كتب التاريخ أو الجغرافيا أو السيرة الذاتية أو كتب الاعتراف أو أدب الاعتراف»..

وهكذا فإن هذه التسمية «أدب الرحلات» تسمية وليدة هذا العصر وما شهده من دراسات ومصطلحات وتقسيمات لفنون وألوان المعرفة الأدبية (17)، كما يقول محمد رضا الرحمان القاسمي. ولعله قرأ ما ذهب إليه منظّرو السيرة الذاتية في الغرب وعلى رأسهم (جورج باطاي Georges Bataille) الذي يُعرّف الرحلة بكونها : جنسا أدبيا من بين كل الأجناس أو الأجناس الصغرى المتفرعة عن المذكرات والصحافة والملحقة بينهما، وهي أجناس لم تفتأ السيرة الذاتية تستمد منها بعض النماذج، يوجد جنس له فيما يبدو منزلة مخصوصة، نعني به أدب الرّحلات (18) كما يعلق مستدركا .

ونستطيع أن نلتقط مدى التداخل الجنساني الذي سيظل يتحرك داخله أدب الرحلة حين نقرأ للباحث المغربي (عبد الفتاح كيليطو) في كتابه (الحكاية والتأويل) ومما جاء فيه : هناك حالة ابن بطوطة رحلته (والرحلة من الصعب فصلها عن السيرة الذاتية) كُتبت بالرغم من أنه لم يكن مؤلفا. كيف نفسّر هذا؟ المعروف أن ابن بطوطة لم يكتب بنفسه رحلته، وإنما كتبها شخص آخر: ابن جُزَي!! لم يكن بإمكانه كتابة رحلته بنفسه، مع أنه لم يكن يجهل الكتابة. فضلا عن ذلك، حتى لو كان ابن بطوطة مؤلفا يعتدّ به لكان بحاجة إلى شيء آخر، إلى إذن من سلطة عليا...كتابة

الرحلة تمّتْ بإذن...من السلطان المريني أبي عنان (19). يقرّ عبد الفتاح كيليطو بصعوبة فصل الرحلة عن السيرة الذاتية ... أو لنقل لم تكتمل تلك المحددات والمعايير الحادة الفاصلة التي تحوز السيرة الذاتية عن ذلك التعالق والتواشج العضوي بالرحلة عند القراء والباحثين، ففي حين أنهما يشتركان في أن المؤلف لهما قد يكون الشخصية الرئيسية في النص المرسل، أي أن هناك واسطة يلتمسها الأول كي يلج نصه دائرة (الأدبية)، وهو ما نلمسه جليا في سير أعلام الفن والسياسة – مثلا- فإن الرحلة لارتباطها بالتاريخ، والتاريخ مرتبط حتما بالمجتمع والأمة (بعكس السيرة الذاتية التي ترتبط بالفرد – مع إقرارنا بقيمة هذا الفرد ووزنه القومي والإنساني-) هذا الارتباط المتين لأدب الرحلة بالتراث الجمعي يجعلها مُراقَبة وتابعة ومأمورة بإرادة السلطة التي تخدمها وتستخدمها في آن .

إن مدى استقرار الجنس الأدبي يتحكم فيه المُرسل وثقافته وإبداعه ومدى اتفاقه واختلافه مع أنساق بيئته ، كما يتحكم فيه المتلقي وطبيعة تلقيه ومدى سلطته على الفعل الإبداعي الحادث المتزمّن . لأن للنسق ذخيرة ثقافية ومعرفية تشكلها عبوته الوظيفية التي تحفظ فاعليته داخل الإطار الثقافي الواحد، وتعمل الذخيرة على إبراز القوانين والمواد التي تُنتَجُ وتُفهم بها النصوص، كما يمكن أن تفهم على أنها بمثابة تبرير للذخائر الخاصة لهذه المستويات المتعددة، ومن ثم تكون الذخيرة هي حصة المعرفة الضرورية لإنتاج وفهم نص من النصوص. بالإضافة إلى إنتاج وفهم منتوجات أخرى متعددة للنسق الأدبي، لأنها قد تكون ذخيرة من أجل إنشاء كتاب، وأخرى من أجل أن تكوّن قراء : وطبيعة الذخيرة مرتبطة بشكل كبير بمفهوم النموذج (modèle) وهو المعرفة المسبقة المرتبطة بأي نصّ مؤول ومفهوم. ويجب التأكيد على أن النماذج المستعملة في الإنتاج تختلف مع النماذج الممتلكة في الفهم، وقد تتلاقى وتتوافق معها. ويمكن أن تكون هناك نماذج تشمل النص بأكمله أو خاصة بجزء معين. وهذا ما يحصل في نص الرحلة ، فهناك نماذج للعبرة والاعتبار والتأمل في الكون، وهناك نماذج للعجيب، وأخرى للنظرة إلى الآخر المخالف (20). هذه النماذج يقرأها الجينيالوجي الأدبي تمثيلا بيّنا جليا لثبات الجنس أو تبدلاته وتغيراته سواء أكان ذلك من جهة إنتاجه أو من جهة تلقيه (البين- ثقافيتين) . فنحن نفترض ضمنا تشظيا للأنساق بين منتج ومتلق داخل الثقافة الواحدة، وهو تشظ سيسفر عن تصعيد أكبر حين يتخطى النص الرحلي أكثر من ثقافة .

هكذا نقف عند نص إشكالي التجنيس، وفي الوقت نفسه نص يستوعب كل جنس أدبي ، فهو ليس مجرد منشور صحافي(...) وهو لا ينكتب نثرا وحسب (...) وهو ليس حكاية بحبكة بسيطة وغير منظمة(...) وهو ليس مجرد ارتباط موضوعي بشيء ما (...)أدب الرحلة ليس فرعا من التاريخ والجغرافيا (...) ولا هو مجرد تحقيق استطلاعي (...) ولا هو استذكار شامل لرحلة ما ولا هو في الأخير أدب فرعي (21) ليس كل هذه جميعا، وهو أيضا بعض من كل هذه أيضا . فإذا حاولنا أن نجد فروقا بين السيرة الذاتية و الرحلة والرواية فإننا سنفكر مليا قبل أن نباشر في التمييز بين بنى وأنساق هذه من تلك ... لأننا كلما هلّلنا لوجود فرق بيّنٍ ظفرنا به... إلا وألفيناه ماثلا في تجربة مغايرة في جنس مغاير .

الرحلة	الرواية	السيرة الذاتية

الزمن خطي	الزمن لولبي متحرك	الزمن خطي استرجاعي
بنية مغلقة	بنية منفتحة	بنية مغلقة
حضور الراوي عرضي	حضور متشظٍ يحيل إلى متعدد	إحالة مرأوية منعكسة
الرؤية من الخلف والرؤية من الخارج في الغالب	الرؤية متعددة	الرؤية - مع في الغالب

هذا الجدول يوضح مدى اتصال وانفصال الرحلة عن كل من الرواية و السيرة الذاتية كمثال شاهد على هذه التداخلات الطفيفة لأنماط سردية متقاربة .

وكما كانت موضوعة الذات -فيما تقدم من صفحات هذا العرض- فاصلة بين نص الرحلة وأدبه فإن هناك بعدا آخر يمكن أن يكون فاصلا بينهما وهو الوظيفة التواصلية وطبيعتها . إذ يتنكر بعض الراسخين في النقد لأدبية «أدب الرحلة» من المنظور الجاكوبسوني الشكلاني حين يحيد البعد التوصيلي المحض عن أي وظيفة شعرية ، نلمس ذلك حين يقترب أدب الرحلة من الرحلة الجغرافية مثلا وهو التباس خاض فيه (نقولا زيادة) في كتابه (الجغرافيا والرحلات عند العرب) الذي حاول فيه التمييز بين الأدبي والعلمي في الرحلة، بين التقريري والإيحائي فيها ... ومع ذلك يبقى هذا الفن مثار جدل بين مصنفيه إذ يعزوه البعض إلى ما يُصطلح عليه بـ «الأدب الموازي paralittérature » على غرار الرواية البوليسية، وأدب الخيال العلمي، وأدب السير وغيرها . لأن الرحلة ستظل تابعة لنص أكبر أو لجنس أكبر genre metoyen بحكم أن النص الأكبر يحظى باعتراف المؤسسة الأدبية والاجتماعية كالشعر أو المسرحية وأخيرا الرواية ... والتابع موازٍ وهامشيٌّ وملحقٌ دائما .

لذا سيظل نص الرحلة يُحرج دارسيه وهو يتقفَّون معاييره التي لا تُسلِّم ولا تذعن فهذا (بيير راجوت Pierre Rajotte) يشير- تحت وقع تمظهراته المتعددة – إلى استحالة الوصول إلى تعريف محدد له. كما يشير (جاك شيبو Jacques Chupeau) و(جينيفييف شامبو Geneviève Champeau) إلى قابلية حدوده المتلونة للنفاذ والاختراق...كما أن (أدريان باسكالي Adrien Pasquali) من جهته يعلي من قيمة تركيب الأجناس والأصوات والنصوص التي يتلقاها نصٌّ كنص الرحلة (22) الإشكالي المثير للسؤال المرجأ أبدا حول هويته وشعريته وجنسه .

الإحالات والهوامش:

(1)- R. Le Huenen, Qu'est ce qu'un récit de voyage ? Les modèles du récit de voyage, Littérales, n° 7, Paris X-Nanterre , 1990, p11

(2)- عماد حلو، القوى البحرية والتجارية في الخليج العربي خلال العصور الإسلامية، دار الجنان للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2017، ص 41

(3)- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل، كتابات نقدية، ع 121، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2002، ص 81

(4)- رشيد يحياوي، الشعري والنثري في الأدب العربي الحديث، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2016، ص 30

(5)- حسن بحراوي، أنساق الميثاق الأتوبيوغرافي، السيرة الذاتية بالمغرب نموذجا، مجلة آفاق، المغرب، ع3، 4، سنة 1984، ص 40

(6)- Jean-Marc Moura, Lire l’exotisme, Paris : Dunod, 1992, p 3

(7)- Ibid., p. 3

(*)-الصورولوجيا imagologie هي علم يهتم بدراسة الصورة سواء أكانت صورة صوتية (كإبداع موسيقي مثلا)، صورة بصرية (فلم ...إشهار...لافتة) صورة خيالية (بطل في عمل أدبي) .والصورولوجيا لا تنظر للصورة بوصفها منتجا أدبيا وحسب، بل تنظر إليها أيضا بوصفها منتجا اجتماعيا وتاريخيا وأنتروبولوجيا وتيولوجيا ... إلخ ...وتنبغي الإشارة إلى أن الصورولوجيا لا تحبس جهودها البحثية عند الصور لتتعداها إلى الأفكار والذهنيات التي تنتجها

Voir Nella Arambasin&Laurence Dahan-Gaida (dirs), L'Autre EnQuête, Presses Universitaires de Franche-Comté, 1056, 2007, Paris, p59

(8)-سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1985، ص 98

(9)- يعقوب يوس ابن إبراهيم الوارجلاني، رحلة الوارجلاني، تحقيق يحيى بن بهون حاج امحمد، مطبعة الجيش، الجزائر، 2007 ، ص 59

(10)- ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، تقديم عمر الطباع، دار الأرقم للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1997، ص 24

(11)- محمد البشير الإبراهيمي، آثار الإبراهيمي، جمع وتقديم أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت،ج2، ط1، 1997، ص 65

(12)-طلال وينل سعيد، تمظهرات النص الشعري الحديث، التشكيل، الفضاء، الرؤية، دار غيداء للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2015، ص 38

(13)- الحسن الطولقي، سوانح متجو ، جريدة لسان الدين، السنة الثانية، العدد - 51 ، مستغانم يوم 1 ربيع الأو 1357 ه الموافق ل 1 ماي 1938 م.

(14)- حديث متجول النجاح.. قاضايان في البيض!، جريدة النجاح، السنة - 30 ، العدد 3864 ، يوم 10 ربيع الأو 1370 ه ، الموافق ل 20 ديسمبر 1950 م.

(15)- محمد العلمي، الرحلة القسنطينية، جريدة النجاح، العدد - 768 ، الاثنين 29 جويلية 1929 . الموافق ل 21 صفر 1348 هـ

(16)- أحمد توفيق المدني، حياة كفاح، المؤسسة الورنية للكتاب، الجزائر، ج - 2 ، ط 2 ، 1977 ، ص ص 29، 30

(17)-محمد رضا الرحمان القاسمي الموقع الإلكتروني-http://www.darululoom deoband.com/arabic/magazine/tmp/1366020150fix4sub8file.htm (دت)

(18)- جورج باطاي، السيرة الذاتية، نقلا عن سامية بابا، مكوّن السيرة الذاتية في رواية: حكايتي شرح يطول، دار غيداء للنشر، عمان، ط1، 2012، ص 34

(19)-عبد الفتاح كيليطو، الحكاية والتأويل، دراسات في السّرد العربي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط1، 1988، ص ص 73، 74

(20)- بو شعيب الساوري، الرحلة والنسق، دراسة في إنتاج النص الرحلي، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2017، ص ص 78، 79

(21)- P.G. Adams, Travel literature and evolution of the novel, Lexington : Univ. Press of Kentucky, 1983, pp. 280-281

(22)- Elisabeth Delrue, Voyages ou séjours d'écrivains espagnols en Europe (1890-1910), L'Harmattan, 2012, Paris, p9